العلاقات التجارية لشمال إفريقيا مع مصر

د. شافية شارن*

تربط بلدان شمال إفريقيا و مصر علاقات تعود إلى فترة ما قبل التاريخ و تدل المخلفات الأثرية كالمسكوكات المكتشفة في نوميديا على قيام علاقات تجارية أثناء حكم البطالمة و الرومان.

و قد شملت واردات وصادرات شمال إفريقيا من وإلى مصر، موادا مختلفة زراعية وحيوانية ومعدنية.

بالاستناد إلى تاريخ هذه العلاقات و طبيعتها، نحاول تسليط الضوء على نشاط هذين البلدين الإفريقيين شمال إفريقيا ومصر في هذه الحقبة التاريخية العريقة.

تعود اتصالات شمال إفريقيا مع مصر؛ في الواقع؛ إلى عصور ما قبل التاريخ في مرحلة العصرين الحجري القديم الأعلى و الحجري الحديث ، وتتلخص في عملية تبادل مواد خام كحجر الصوان و الأوبسيديان و ربما الفراء وجلود بعض الحيوانات مثل جلود الثعابين و التماسيح[1]، و كذلك عندما اضطرت عناصر ليبية إلى التحرك شرقا في محاولة للاستقرار على ضفاف وادي النيل الأدنى على حافة الصحراء بالفيوم أو مرمدة بني سلامة ،و قد تكثفت الاتصالات في عهد الدولة القديمة ، و كذلك في عهد الدولة الوسطى والحديثة ،وقد وصلت إلى أوجها في بداية العصر المتأخر ، وأثناء الأسرتين الثانية والعشرين و الثالثة والعشرين ، عندما تمكنت أسرة ليبية من الوصول إلى كرسي الحكم[2] مستغلة حالة الضعف والاضطراب السياسي اللتين حلتا بمصر. وكانت النصوص المصرية تطلق على الليبيين اسم التحنو، ومن بين الشخصيات الليبية البارزة التي اعتلت عرش مصر، شاشونق الأول مؤسس الأسرة

---

* د. شافية شارن، الجزائر.

[1] عدواني (م.ط.) ، الجزائر في التاريخ منذ نشأة الحضارة ، الجزائر 1984، ص 238،

[2] الناضوري (رشيد) ، المغرب الكبير في العصور القديمة ، الجزء الأول ، بيروت 1981، ص ، 223.

تسجل لوحة نعمر(Namer) في حوالي 3300 ق.م.أي قبل الأسرات ، انتصارات المصريين على الليبيين تلتها حملتان مماثلتان في عهد الدولة الوسطى ، الأولى في عهد (Chefren) ، و في عهد الأسرة الخامسة في ظل حكم (Neferirkaré) في حوالي 2600 ق.م ، و الثانية في ظل حكم رمسيس الثاني و إبنه منبتاح (Menemptah) من الأسرة التاسعة عشر في عهد الدولة الحديثة حين تصديا لهجوم الليبيين مع شعوب البحر على الدلتا سنة 1227 ق.م.، و نزلوا في عهد رمسيس الثالث في حوالي 1189 ق.م.، و في عهد رمسيس الرابع بأعداد هائلة في الدلتا ، Alfred (C), Les Egyptiens , l'empire des pharaons , Paris , 1985 , PP, 234,237

عدواني(م.ط.)

الثانية والعشرين في حوالي 950 ق.م. ، ويعتقد أن هذه العلاقات تعود إلى عهود مبكرة لعل أول النصوص التي تحدثنا عنها ، هي تلك التي خلفها الرحالة والتاجر المصري خرخوف الذي كان يتاجر لحساب الفرعون و اختيار رحلاته إلى بلاد يام وإلى أرض التمحو نحو الغرب طريق سلكه كثير من الرحالة وهو يربط بين كوش (السودان الشرقي والغربي) والصحراء الليبية ، كذلك إختيار رحلاته إلى الواحات الغربية ، قائلا "...لم تكن مصر الفرعونية على صلة مباشرة بإفريقيا وإنما كان الليبيون و أهل النوبة هم الذين يكونون حلقة وصل ... و لم تكن دائما العلاقات المصرية النوبية و اللوبية على ما يرام ... و يمكن أن تكون من أسباب هذا الخصام أيضا ، إن هذه القبائل البدوية في بلاد الليبو و النوبة كثيرا ما كانت تعترض طريق الرحالة المصريين و قوافل تجارتهم ، لذلك فقد كانوا ولا شك حرصين على احتكار تجارة هذا الجزء من العالم .

و في الحقيقة زيادة على ذلك ، تثبت مصادر ما قبل الأسرات أي قبل الألف الرابعة قبل الميلاد على وجود علاقات تجارية بين مصر و شعوب السواحل الشمالية للمتوسط ومن بين الشعوب الليبية القديمة التي تذكرها النصب المصرية :

- البدو أو التحنو (Tehenou) على الحدود المصرية الليبية
- الليبو (Libou) أكثر إلى الغرب
- المشوشة (Masaouza) أي (Maxys) .

و بناء على الثروة الحيوانية التي كانت تزخر بها ليبيا ، فقد كان الليبيون منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، يزودون سكان الدلتا بمنتجاتهم الحيوانية المختلفة وفيما يخص أسباب عـدم معرفـة مضمون هذه العلاقـات التجاريـة أكثر يضيف عدواني(م.ط.) " إذا كانت الوثائق و النصوص الفرعونية منذ عصر الدولة القديمة تحدثنا بإسهاب عن نشاطها التجاري مع بلاد الشام ... فهي تبدو أكثر تكتما فيما يخص هذا النشاط مع المناطق الغربية ، للأهمية القصوى التي تتميز بها هذه التجارة من ناحية و لطبيعتها من ناحية أخرى ، حيث أن هذه التجارة أوكلت في عهد الدولة القديمة إلى قائد عسكري هو كاتم سر الإله ،وقد تولى هذه المهام ، مرات عديدة حكائيب بن نخت و خرخوف سابق الذكر وإيخوديدي في عهد سيزوستريس الأول (Sesostris I) من الدولة الوسطى (2035 – 1168 ق.م.) ، وتعيين الفراعنة لشخصيات تكتم الأسرار ، مما يبرز مدى حرص مصر على إخفاء مصادر ثروتها و طرقات أسواقها التجارية مثل كل القوى الاقتصادية الكبرى كفنيقيا وبعدها قرطاجة .

و دائما في إطار عرض الحركة التجارية الإفريقية الصحراوية مع مصر تذكر إحدى السجلات الفرعونية أن القبائل الليبية قدمت في عهد الملكة حتشبسوت

من الدولة الحديثة (1550 /1070 ق.م.) كمية كبيرة من العاج تتلخص في سبعمائة ناب فيل ، وأكياسا من الذهب ، يبدو أنه من التبر[٣] .

بعد سنة 1380 ق.م. ، بينما نقصت إيرادات مصر من آسيا الصغرى ، ظلت الواردات الأفريقية مرتفعة و توثقت العلاقات مع شاطئ البخور ، فمن البلاد الإفريقية كانت ترد السفن المصنوعة من السنط محملة بالأبنوس و العاج و جلد النمور البخور و الأحجار الكريمة و الذهب ... و العبيد[٤] ودائما في إطار العلاقات الاقتصادية بين شمال إفريقيا و مصر الفرعونية ، ينبغي الإشارة إلى أن الرحلتين المصريتين ، الأولى الرحلة التي نظمها الفرعون نخاو (Nechao)[٥] حول إفريقيا (609/594 ق.م) ، والثانية انطلقت من البحر الأحمر في اتجاه بلاد البخور ، بمعنى اليمن و شبه الجزيرة العربية والصومال وإثيوبيا ، ومثل الرحلات سالفة الذكر لا نعلم شيئا عن مضمون تجارتها .

و إذا دلتنا السجلات الفرعونية التي تعود إلى فترة الملكة حتشبسوت و تصريحات عالم المصريات ج . يويوت ، على وجود صادرات إفريقية نحو مصر ، و تمثلت في ٧٠٠ ناب فيل[٦]، إذ اشتهرت بذلك نوميديا شأنها في ذلك شأن بلاد التحنو المحاذية لمصر ، فإن المصادر الأخرى ، التزمت الصمت حول مضمون التجارة القائمة بين مصر و نوميديا . و في الواقع أشارت المعطيات

استطاعت مصر ، بعد تدهور قوة الهكسوس ؛ أن تهيمن على كثير من مناطق العالم القديم فوصلت إلى نهر الفرات و منها إلى فلسطين و فنيقيا و سوريا و الأناضول وفي الجنوب إلى النوبة و يعتبر البعض أن البضائع التي كانت ترد مصر هي بمثابة الجزية ، رغم أن الليبيين كانوا آنذاك في اعتقادنا مثل شعوب آسيا الصغرى ، في موقف هجوم ، وإذا كان مصدر الذهب المذكور ، مملكة كوش ، أو وادي الذهب ، فإن الفيل كان في كوش ، ومصر ، وكذلك في قورينايا و طرابلس و خاصة في نوميديا و موريطانيا ، م.ك. عبد العليم ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم ، بنغازي ، 1996 ، عدواني (م.ط.) ، المرجع السابق ، ص ، 243[٣]

٤ يويوت (ج) ، مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة ع.م.أبو بكر ، القاهرة 1966 ، ص ، 121

[٥]Herodote, IV,42,43 ; Casson (L), Les marins dans l'antiquité explorateurs combattants sur la meditérranée d'autrefois, Paris , 1961, P,159 ; Thomazi (A), Histoire de la navigation , collec. Que sais je , Paris,1947, P,15 Breasted (J. H) , Ancient records of Egypt historical documents ,

[٦]1906/1907, London, Part II , P, 385

الأثرية والأدبية في القل وقوراية[٧] بنوميديا الكبرى في عصر الممالك ، إلى وجود واردات مصرية تتمثل في قارورات زجاجية ربما لحفظ العطور المشهورة في بلاد الشرق ، فضلا عن أقمشة مصرية و نبيذ[٨]. كما سجل بدءا من القرن الثاني الميلادي وجود تجار شرقيين مصريين و سوريين في مدن نوميدية عديدة ، حلوا فيها محل التجار الايطاليين الذين فقدوا إذاك مراقبة تجارة العالم القديم .

وما يدعم هذه المعطيات ، مجموعة من العملات المصرية البطلمية المكتشفة في نوميديا ، الأولى في الخنج ، غير واضحة النقش[٩]، و الثانية عملة بطلمية أيضا ، تنقسم إلى قسمين :

يضم القسم الأول الذي عثر عليه في قسنطينة :

ـ قطعة نقدية من البرونز لبطليموس الأول سوتر (Soter) و زوجته برنيس الأولي (Berenice) ، تعود إلى الفترة الممتدة ما بين ٣٠٥ و ٢٨٣ ق.م.

ـ قطعة نقدية من الفضة لبطليموس الخامس (Epiphane) تعود إلى ما بين عامي ٢٠٤ و ١٨١ ق.م.

ـ ثلاث قطع نقدية برونزية لبطليموس العاشر (Soter) بن كليوبترا الثالثة ، الذي حكم فيما بين عامي ١١٦ و ١٠٧ ق.م.

أما القسم الثاني فيتمثل في عملات بطلمية أيضا ، لكن تعود إلى عهد الملكة كليوبترا السابعة ، تعود إلى الفترة الممتدة بين ٤٩ و ٣١ ق.م. و قد عثر عليها في مدينة الجزائر[١٠] التي كانت آنذاك تابعة إلى موريطانيا القيصرية،مملكة يوبا الثاني زوج ابنتها كليوبترا سليني . وأهمية هذه العملة الأخيرة تكمن في كونها برونزية يبلغ قطرها ٢٧ مليمتر ، و سمكها ٤ مليمتر، ووزنها ٤،٢٣ غرام ، تظهر في وجهها كليوبترا السابعة و على الظهر يبرز النسر البطلمي ، مع قرن الخصب أو الرخاء (الصورة في الوجه و الخلف)

لقد كانت الاتصالات بين البلدين تتم بواسطة وسائل عديدة و متنوعة حيث نجد الاتصالات البحرية ، فالبلدين يملكان سواحل وأساطيل بحرية تجوب البحر المتوسط بالإضافة إلى الطرق البرية ، إذ كانت تربط البلدين طريق تمتد من مدينة

---

[٧] Gsell (S) , H.A.AN. , T, IV, P , 98

[٨] Ibid , T, VI, P, 80

[٩] Berthier (A) , Tiddis, haut lieu de l'Algerie antique , Archéologie , 1971, n° 42 ,P, 20

[١٠] Monceau (P), loc cit ; Gautier (P), Une monnaie de Cléopatre VII , Libyca ,
1956, T, IV , PP , 335/36 ,

طيبة بواحة آمون إلى سيوة الليبية و منها تمتد غربا إلى البلدان المغاربية[١١]، أما أثناء الاحتلال الروماني ، فقد استمر التعامل التجاري قائما بين البلدين ، كما يتجلى من خلال تواجد مصريين ، يظهر أن بعضهم كانوا تجارا حيث أقاموا في مدن معروفة بأهميتها الاقتصادية مثل قسنطينة وجميلة وسكيكدة وتبسة[١٢] والبعض الآخر قدم صحبة كليوبترا سليني زوجة يوبا الثاني ، وكان تأثيرها الروحي والفني كبير على ولاية موريطانيا القيصرية ، كما تشير كثرة الآلهة المصرية كإزيس و بيس(Bes) وسرابيس المنتشرة عبر أراضيها التي أقامتها الجالية المصرية[١٣].

أ) صادرات شمال إفريقيا إلى مصر أثناء الاحتلال الروماني

تتلخص في تصدير موريطانيا القيصرية إلى الإسكندرية زيت الزيتون المنتج في تكلات بحوض الصومام في القرن الثاني الميلادي[١٤]، إلى جانب العاج و جلود الفهود و النمور التي كانت تزخر بها نوميديا ، و نظرا لأهمية خشب نوميديا و موريطانيا المتمثل في خشب العفصية والتنوب والصنوبر الحلبي و البلوط و الزيتون ، و نظرا لحاجة مصر إلى هذه المادة ، من المرجح أن تكون المقاطعتان قد صدرته إلى مصر لبناء معابدها وسفنها وصناعة أثاثها . وحسب هنري لوط كثيرا ما كان الليبيون يترددون على أسواق مصر لبيع ماشيتهم[١٥] و مشتقاتها كالزبدة و الجبن ، فضلا عن زيت عطري متميز يجهل مصدره ، مشهور بزيت ليبيا ، خصص لصناعة العطور .

ب) واردات شمال إفريقيا من مصر أثناء الاحتلال الروماني

تنوعت واردات نوميديا و موريطانيا القيصرية من مصر أثناء الاحتلال الروماني ، إذ نجد ورق البردي الذي أنتشر في مختلف أنحاء العالم ، و كذلك التحف[١٦] و المصابيح[١٧] فضلا عن تماثيل الآلهة المصرية[١٨]،ومن المحتمل أن تكون نوميديا و

---

[١١] Lhote (H) , Le cheval , le chameau dans les peintures et gravures du sahara B.H.F.A.N., 1, XV, 1953 , P, 1167

[١٢] Benseddik (N) , Pottier (T.W.), Fouilles du forum ,1977/1981, PP,106-107

[١٣] I bid ,

[١٤] S alama (P) Les voies romaines de l'Afrique du nord , Alger , 1951 , P, 43

[١٥] Lhote (H) , Le Hoggar , espace et temps , Paris, 1984 , P, 128

[١٦] Casson (L) , op cit , P, 264 ; Lecocq (A) , op cit , P, 510

[١٧] Delamare (A.H.A.) , Exploration scientifique de l'Algérie archéologique , pl , 182 , fig , 22 , pl ,193, fig , 3 5

موريطانيا القيصرية قد جلبتا من مصر الكتان والعطور، والأواني الزجاجية إلى جانب العقيق والحلي والأواني الفضية التي اشتهرت بها مصر وروجتها خـــارج حدودها.[١٩] و رغم قلة المعلومات عن التبادل التجاري بين نوميديا و موريطانيا القيصرية و مصر يشير دياهل (Diehl)[٢٠] إلى قدم العلاقة بين البلدين في أواخر الإمبراطورية و متانتها .

لقد تم التبادل التجاري بين نوميديا و موريطانيا القيصرية مع مصر عبر طريقين رئيسيين ، أحدهما طريق ساحلي ينطلق من البحر الأحمر شرقا ، إلى المحيط الأطلسي غربا ، عبر عين شمس(Heliopolis) ، و بلدة الشحات (Cyréne و لبدة و قابس و قرطاجة ، و بنزرت (Hippo –Diarrhytus) ، و عنابة و بجاية (Saldae) و شرشال (Caesarea) و بطيوة (Portus Magnus)[٢١] وثانيهما طريق داخلي للقوافل تنطلق من مصر في اتجاه فزان ثم تصل مدينة قابس و أخيرا تبسة.[٢٢]

---

[١٨] Benseddik (N) , Pottier (T.W.) , loc cit , من بين تماثيل الآلهة المصرية المحفوظة في متحف سكيكدة يمكن ذكر الإله سيرابيس ، و ثلاث تماثيل للآلهة مصرية مجهولة ، و تمثال للإله أوزريس ، و رأس القطة المقدسة بوبستيس (Bubastis) ، علاوة على أواني زجاجية

Bertrand (L) , Bertrand (F), Catalogue du musée archéologique de Phillipeville , 1914 , P, 50 , n° 508; P, 52, n° 652 /680

[١٩] Rostovtzeff (M.I.) , Histoire …, P, 68

[٢٠] L'Afrique , PP, 406, 52

[٢١] Homo (L) , Le siecle d'or de l'empire romain , Paris, 1947 , P, 437 ; Homo (L) , L'empire romain , Paris , 1969 , PP, 304/305 ; Charlesworth (M.P.) , Les routes et le trafic commercial dans l'empire romain , Paris, 1938 , P, 17 ; Rougé (J) , Recherches sur l'organisation du commerce maritime en méditérrénée sous l'empire romain , Paris 1955, P, 97

. Heeren (A.H.L.) , De la politique , 1832 PP, 274/75 ;

[٢٢] d'economie des peuples de l'antiquité , Paris, Haynes (D.E.L) , Antiquities of Tripolitana , Libyca , 1959, P, 136

الخلاصة :

بعد عرضنا للعلاقات التجارية بين شمال إفريقيا و مصر ، نستخلص النتائج التالية :

١) قدم العلاقات التجارية و السياسية بين البلدين.

٢) أهمية حجم الصادرات الحيوانية الإفريقية نحو مصر و جهلنا لحجم الصادرات الزراعية و المعدنية .

٣) أن صادرات و واردات هذين البلدين فيما بينهما تضاهي إلى حد بعيد صادراتها و وارداتها مع غيرها من البلدان الأخرى .

٤) تنوع الصادرات و الواردات المذكورة أعلاه متوقف على اختلاف مواقع مصادر هذه الثروات الساحلية منها و الصحراوية أيضا .

كيتوبرة السابعة